المحاضرة 14 المسرح العربي المعاصر وقضاياه:

تحليل مسرحية "السلطان الحائر" لتوفيق الحكيم

تعريف المسرح:

إنَّ المسرح هو أحد أنواع الفنون المُهمّة عبر العصور؛ بل يُلقب المسرح بأبو الفنون جميعاً؛ نظراً لاشتماله وجمعه للعديد من العناصر الفنية على خشبته؛ فترى الممثل يرقص ويغني ويؤدّي مشهداً تمثيلياً، في حين تعزف الفرقة الموسيقيّة في الكواليس الموسيقى التصويريّة التي ترافق المشهد، وتُحفّز إحساس الجمهور به، عدا عن توفر فن الديكور للمشاهد المختلفة، وفنون الإضاءة التي تتناسب مع طبيعة المشاهد، ولا ننسى أن تقديم النصّ المسرحيّ على خشبة المسرح أو مكان ما، هو فنّ أصيل مُنفرد بحد ذاته؛ فما بالك لو اجتمع كلّ ما سبق وأكثر في فنٍ واحد.

يُعتبر فنّ المسرح من أوائل الفنون التي ظهرت في حياة الإنسان وخير دليل على ذلك؛ المسارح الحجريّة القديمة الموجودة في العديد من مدن العالم ومنها؛ المدرج الروماني في العاصمة الأردنيّة عمان، ومدرج مدينة جرش في الأردن أيضاً، ومسرح مدينة بعلبك اللبنانية، وساحات المعابد الفرعونية في مصر، وغيرها من المسارح التي تؤكّد على أصالة الفنّ المسرحي وعراقة حضوره منذ أزمان طويلة.

المسرح والمسرحية:

يظن البعض أنّ المسرح هو المسرحية؛ والحقيقة أنّ المسرح هو المكان الذي تؤدى عليه المسرحية، وهو التعبير الفني أيضاً عن شكل من أشكال الفنون؛ في حين أنّ المسرحية هي النص أو الحكاية التي نسج خيوطها المؤلف، وعبّر عنها الممثلون بتوجيه من مخرج العمل، وخُصّص لها الوقت للتحضير والتدريب، والنصّ المسرحي هو أساس القصّة التي تدفع الجمهور إلى التوجّه نحو صالات وقاعات المسارح؛ فلا يمكن للمسرح أن يكون مسرحاً دون نصّ مسرحي.

مفهوم النص المسرحي :

النص المسرحيّ هو عبارة عن قصّة مكتوبة تُقدّم على خشبة المسرح، وتشمل الأحداث والشخصيّات والحوار بينها، ويوضّح طبيعة ارتباط الأشخاص بالمكان والزمان عبر سلسلة من المشاهد المترابطة والمتلاحقة، ويُعتَبر النص المسرحي البناء الدرامي الذي يحدّد سير العرض المسرحي وأساليب الإخراج والتمثيل والتصميم؛ فهو الإيحاء الذي يُسهّل على المخرج تصوّر المكان والزمان، كما يَمدّ الممثل بالتصوّر المبدئي للحالة التمثيليّة التي سوف يتقمّصها أثناء قراءة دوره التمثيليّ في النص وحفظه، كما يتيح النص المسرحي المجال للجمهور لفهم فكرة وغاية المسرحيّة، وكثيراً ما يقرّر النص المسرحيّ نجاح العمل المسرحي برمته، أو تعثرِه عند المشاهد الأولى.

عناصر النص المسرحي:

الحبكة:

وهي البناء القصصي للنص، والتنظيم الشامل لكلّ تحركات أبطال النص المسرحي؛ وعندما نقول حبكة أي الترابط الذي يحفظ بُنية النص.

الأشخاص:

وهم أبطال الحكاية التي تروى على خشبة المسرح، ويتمّ اختيارهم بناءً على قدراتهم المتفاوتة في الأداء، وطبيعة الأدوار الموجودة ورؤية المخرج.

الهدف أو المغزى:

وهو سبب كتابة النص المسرحي ووصوله إلى خشبة المسرح؛ فلكلّ نصّ مسرحي هدف وفكرة يسعى لها الكاتب ويؤمن بها المخرج ويجسّدها الممثلون.

اللغة:

وهي أداة الممثل الكلاميّة؛ فبعض النصوص أو المشاهد تكون على هيئة أبيات شعريّة أو نصوص نثريّة أو خليط بينهما، وبعض الأساليب التي يتحاور من خلالها أبطال المسرحية تكون الغناء؛ فترانا نقول مسرحية غنائيّة.

تعريف الأديب "توفيق الحكيم":

ولد توفيق الحكيم في 9 أكتوبر في الإسكندرية عام 1898 وتوفى في 26 يوليو عام 1987 في القاهرة. وهو كاتب وأديب مصري، من رواد الرواية والكتابة المسرحية العربية ومن الأسماء البارزة في تاريخ الأدب العربي الحديث، كانت للطريقة التي استقبل بها الشارع الأدبي العربي نتاجاته الفنية بين اعتباره نجاحاً عظيماً تارة وإخفاقاً كبيراً تارة أخرى الأثر الأعظم على تبلور خصوصية تأثير أدب وفكر الحكيم على أجيال متعاقبة من الأدباء، وكانت مسرحيته المشهورة أهل الكهف في عام 1933 حدثاً هاماً في الدراما العربية فقد كانت تلك المسرحية بداية لنشوء تيار مسرحي عرف بالمسرح الذهني. بالرغم من الإنتاج الغزير للحكيم فإنه لم يكتب إلا عدداً قليلاً من المسرحيات التي يمكن تمثيلها على خشبة المسرح فمعظم مسرحياته من النوع الذي كُتب ليُقرأ فيكتشف القارئ من خلاله عالماً من الدلائل والرموز التي يمكن إسقاطها على الواقع في سهولة لتسهم في تقديم رؤية نقدية للحياة والمجتمع تتسم بقدر كبير من العمق والوعي.

عن المسرحية:

السلطان الحائر هو اسم المسرحية التي كتبها توفيق الحكيم خريف عام 1959م حيث كان الحكيم حينها في باريس، وكان يتفاعل مع ما مر به العالم في العقد الأخير من استخدام دولة عظمى كالولايات المتحدة القوة النووية لإنهاء الحرب العالمية الثانية، عوضا إلى الاحتكام بقوانين مجلس الأمن والأمم المتحدة التي تمثل"المبدأ" في الصراع السياسي الدولي. وصدرت في نفس التوقيت بالفرنسية تحت عنوان "الاختيار". ولعلها من أهم أعماله التي لا تزال محتفظة بسخونتها حيث كتبها منتصراً للديمقراطية والقانون، ومنددا بمنطق السيف.

تدور أحداث المسرحية في ثلاث فصول حول سلطان من سلاطين المماليك علم أن الناس في مدينته يلغطون أنه لم يزل عبداً، وأن سيده السابق لم يعتقه، ولهذا لا يحق له أن يحكم ويكون سلطاناً على الناس قبل أن يُعتق ويصير حرا. ويتحيّر السلطان بين استعمال القوة لإسكات الناس (وهذا رأي الوزير)، والاحتكام إلى القانون (وهذا رأي القاضي). والاحتكام إلى القانون يعني أن يُعرض السلطان في مزاد عام أمام الناس ليشتريه من يشتريه ثم يعتقه، وقد تردّد السلطان بين الرأيين، ولكنه قرر في النهاية أن يكون القانون هو الحكم.

وتم المزاد، وكان السلطان من نصيب غانية سيئة السمعة بالمدينة، ورفضت تلك الغانية التوقيع على وثيقة العتق، وبعد أخذ ورد وافقت الغانية على شراء السلطان والتوقيع على صك عتقه بعد أن يؤذن المؤذن لصلاة

الفجر! وتستضيف الغانية السلطان في بيتها، ويدور بينهما حوار يكشف شخصيتيهما، فقد اكتشف السلطان أن الغانية بريئة من تهمة العهر، وما هي إلا امرأة تُحب الأدب والفن، كما اكتشفت الغانية طيبة السلطان ودماثة خلقه.

وأثناء الحوار بين الغانية والسلطان يؤذن المؤذن لصلاة الفجر في منتصف الليل، ويُفاجأ السلطان والغانية بالأذان، ثم يعلمان أن تلك الخطة من تدبير القاضي، الذي تحايل على القانون، وزعم أن العتق يتم إذا أذّن المؤذن لصلاة الفجر سواء أكان الأذان في موعده، أم في غير موعده، ويرفض السلطان ذلك، ويفضِّل أن يبقى عند الغانية حتى الموعد الحقيقي لأذان الفجر، ولكن الغانية لما رأت أن تلك الحيلة مبعثها حب القاضي للسلطان، قررت أن تُعيد هي الأخرى للسلطان حريته تعبيراً عن حبها، حتى ولو كان ذلك قبل الموعد المتفق عليه سلفاً، وقد أهداها السلطان الياقوتة الكبرى التي تزين عمامته، قائلا: "لن أنسى أبداً أني كنتُ عبدك ليلة".

شخصيات المسرحية:

-1 **الشخصية الرئيسية:**

- السلطان: قضيته هي محور الأحداث، يكتشف انه عبدا لم يعتق، أظهره النص إنه متزن وواقعي وذو شخصية قوية.

-2 **الشخصيات الثانوية:**

- الوزير: وصفه النص بأنه مخلص للسلطان ولكنه متسرع ومخادع، يؤمن بالعنف كحل ناجع.
- القاضي: وصفه النص بأنه مؤمن بسيادة القانون، صريح يخلص للقانون أولاً، ولكنه لخوفه على سمعة سلطان البلاد يتحايل على القانون في النهاية.
- الغانية: امرأة جميلة وغنية، كانت جارية اعتقها زوجها، وصفها النص بأنها ذكية وحكيمة وعنيدة ومتفوهة تحب الفنون والأدب.
- النخّاس: يظهر في أول المسرحية وقد ساقه الجلاد ليعدم بعد آذان الفجر، يمثل العبودية في أوضح صورة لها
- الجلّاد: يظهر أيضاً في بداية المسرحية، يمثل سيف العدالة الأعمى الذي لا يهمه فيما يقتل، ولا يهمه إلا تنفيذ الأوامر.
- المؤذن: وهو يمثل رجال الدين في الدولة، ويظهر في المسرحية مرتان، مرة تستدرجه الغانية لكي لا يؤذن لصلاة الفجر فلا يعدم النخاس، ومرة ساقه القاضي والوزير ليؤذن للفجر في منتصف الليل لإخراج السلطان في بيت الغانية
- الخمّار والإسكافي، شخصيتان أوجدهما الكاتب ليمثلا العامة من الشعب.

ملخص المسرحية:

تحكي المسرحية قصة أحد سلاطين العصر المملوكي الذي ملأ الأرض عدلاً ورفاهية وازدهاراً حتى أصبح زعيماً حقيقياً يتغنى الشعب باسمه ويفدونه بأرواحهم، وقد بنى السلطان مجده هذا عبر سنوات طويلة من العرق والكفاح، والاتصال المستمر مع شعبه بتواضع وحب ومسئولية، فقهر المغول، وخفض الضرائب وبنى الجسور والمدارس، ووفر سبل الحياة الرغيدة للجميع. وفي أوج مجده وانتصاراته ونهضته العظيمة خرج بين الناس رجل يطعن في شرعية تولي السلطان الحكم، وقال: إن السلطان الحالي كان عبداً رقيقاً لدى السلطان الراحل، وأن السلطان الراحل لم يمهله القدر ليعتق عبده المملوك. وبالتالي فهو عبد مملوك ليس له الحق في الحكم.

وسرت الحكاية بين الناس وتداولوها في منتدياتهم وجلساتهم حتى بلغت السلطان فجمع الوزير والقاضي ليبحث معهما أفضل السبل لعلاج المسألة، وظهر اتجاهان للحل. حيث اقترح الوزير قطع رقبة صاحب الإشاعة فوراً، وقال أن الناس ستتفهم الموقف، وأن حبها للسلطان ورغبتها في بقائه في السلطنة ستغفر للسلطان هذا التجاوز، وحادثة واحدة مثل هذه ستمر سريعاً ولن يتوقف عندها الناس، في مقابل أن يحتفظ الناس بسلطانهم المحبوب.

أما القاضي فقد فجّر مفاجأة أن السلطان لايزال عبداً فعلاً، وأنه لم يستلم من السلطان الراحل وثيقة عتقه، وإن كان لابد من قص رقبة النخاس، فلتقص رقبة القاضي أيضاً فهو لا يمكن أن يسمح لنفسه أن يخرق القانون الذي يمثله، وبعد محاولات من الوزير أن يثني القاضي عن إصراره، بالسياسة تارة، وبالتهديد تارة، غير أن القاضي أطرق ملياً ثم قال إنه بحث المسألة من كل أوجهها ولم يجد سوى مخرج وحيد، وهو أن السلطان الراحل لم يعتق السلطان الحالي، وليس للراحل أي ورثة، وعليه، فإن ملكية السلطان تؤول إلى بيت المال، فيطرح السلطان للبيع في مزاد علني، على أن نشترط على المشتري أن يعتق السلطان فور شرائه، وبمجرد عتقه يتم تنصيبه سلطاناً مرة أخرى.

جرى نقاش حاد بين القاضي والوزير، وقدم القاضي مبررات قوية لاقتراحه: فالموضوع لن يستغرق سوى عدة ساعات، ولكنه سيضمن شرعية السلطان، وسيرسخ قاعدة هامة للشعب، بأن السلطان حريص على تطبيق العدل وإقامة القانون، كما أن الثمن الذي يطرحه القاضي للشرعية هو ثمن بخس أمام مُلك حقيقي محمي بالقانون وبحب الشعب، لا يعتمد على السيف الذي يمكن أن يفرض السلطان لفترة ثم يزيحه عنه من هو أمضى سيفاً وأكثر جنوداً. وقال: إن الدم إذا سال مرة، فسيسيل بعد ذلك عشرات المرات، ولن يستطيع أحد أن يوقفه، ولا أريد أن يعرف السلطان بين الناس بأنه رجل السيف والدماء

استسلم السلطان للحظة تفكير عميق، ترى لمن ينتصر السلطان؟ – لسطوة السيف؟ أم لسلطة القانون؟ ثم أعلن السلطان قراره: اختار السلطان حل قاضي القضاة، ورضي أن يباع في مزاد علني.

ويحتشد الناس يوم بيع السلطان في المزاد، وجاء المشترين ليعاينوا "البضاعة"، فالخمّار رغب في شرائه لأن وجود السلطان في الخمارة سيجذب الزبائن، والإسكافي رغب كذلك في شرائه ليستخدمه في عرض بضاعته، ولكنه وقع أخيراً من نصيب امرأة غانية سيئة السمعة، دفعت فيه كل ما تملك. وبعد إتمام الصفقة رفضت الغانية تنفيذ شرط عتق السلطان، وقالت: إنه شرط باطل. وجن جنون الجميع، وأصرت الغانية على رأيها، ونظر الجميع إلى قاضي القضاة الذي حاول جهده مع الغانية، ثم استسلم فقد كان يعلم أنها على حق، وطلبت الغانية من القاضي والوزير أن يساعداها على نقل السلطان إلى بيتها، وبعد أخذ ورد وافقت الغانية على توقيع صك عتقه بشرط أن يبقى معها السلطان في بيتها حتى آذان الفجر، فإذا أذّن المؤذن للصلاة، وقعت على وثيقة عتقه وتركه لحال سبيله، وبالفعل انتقل السلطان إلى بيت سيدته.

وتستضيف الغانية السلطان في بيتها، ويدور بينهما حوار يكشف شخصيتيهما، فقد اكتشف السلطان أن الغانية بريئة من تهمة العهر، وما هي إلا امرأة تُحب الأدب والفن، كما اكتشفت الغانية طيبة السلطان ودماثة خلقه. أثناء ذلك حاول القاضي تخليص السلطان، فتحايل وطلب من المؤذن أن يؤذن لصلاة الفجر مع منتصف الليل، ولكن السلطان رفض ذلك، وفضَل أن يبقى عند الغانية حتى الموعد الحقيقي لأذان الفجر لكي لا يحنث بما وعد، ولكن الغانية لما رأت أن تلك الحيلة مبعثها حب القاضي للسلطان، قررت أن تُعيد هي الأخرى للسلطان حريته تعبيراً عن حبها، حتى ولو كان ذلك قبل الموعد المتفق عليه سلفاً، وقد أهداها السلطان الياقوتة الكبرى التي تزين عمامته، قائلا: "لن

أنسى أبداً أني كنتُ عبدك ليلة". لم تكن الغانية تريد من شراء السلطان إلا أن تثبت للناس أنها جديرة بالاحترام، وأنها في وقت من الأوقات كانت تملك السلطان نفسه.

في الصباح مضى كل شيء على ما يرام، وعاد السلطان لقصره، وطويت هذه الصفحة من تاريخ المملكة إلى الأبد ... وخلص منها السلطان بدرس لا ينساه طوال عمره وهو أن الاحتكام إلى القانون هو السبيل لصيانة الحقوق وحب الناس، وأن عواقب الجنوح للسيف وخيمة على حكمه وعلى بلاده.

والمغزى الحقيقي للمسرحية هو أن القوي من يحتمي بالقانون والحق، وليس هو من يحتمي بالسيف، وأن الخضوع للعدالة مجد ورفعة وقوة، وأن حاجات المجتمع إلى سيادة القانون ـ على النحو الصحيح تماماً ـ أشد من حاجتها إلى أي شيء آخر، ويظهر لنا بوضوح أن دور السلطان في حماية القانون هو دور جوهري وأصيل، بل هو الدور الأول، إذا فقده أو حاد عنه فقد كل شيء، وندرك أيضا أن حاجة الأمة إلى القاضي الأمين العادل تُساوي تماماً حاجتها إلى الجيش القوي الظافر، فالجيش يدفع البغي عن الأوطان، والقاضي يدفع البغي عن الحقوق التي بدونها يُصبح الأفراد هملاً وضياعاً، بل لا يمكن لأفراد تضيع عدالة القانون بينهم أن يصنعوا من أنفسهم جيشاً منتصراً، أو أمة ذات قيمة.

تحليل الشخصيات: (مقتبس من تحليل للناقد الراحل "زكي العيلة" أمين العلاقات العامة والنشر في الاتحاد العام للكتّاب والأدباء الفلسطينيين)

1- ـ السلطان:

ينكر د. عبد القادر القط على المؤلف بيعه لسلطان عظيم، وقائد مظفر حمى وطنه وأمته من غارات المغول في سوق المدينة متجاهلاً كيان السلطان الواقعي القائم على الحرية الحقيقية في المنصب والسلوك "في سبيل منطق شكلي سخيف يقضي بعبودية ذلك السلطان لأن مولاه السابق لم يعتقه قبل موته"

غير أن نظرة مدققة للعمل المسرحي تجعلنا نبرر للكاتب تصرفه، فموافقة السلطان على بيعه لتصحيح وضعه الشرعي هو المحور الذي بنيت عليه الأحداث، وقبولنا رأي الناقد يعني هدم أساس الفكرة التي يريد المؤلف طرحها، فالسلطان الذي ينبذ السيف جانباً ويختار بقناعة تنفيذ القانون الذي يكفل له حقه، وحق شعبه جدير بالاحترام، وتوكيد في الوقت ذاته على أن منطق المؤلف لم يكن شكلياً.

من هنا تبدو صعوبة تقبل وصف د. القط للسلطان بأنه "قليل التفكير، ضعيف الذكاء، لا يعلم من أمر رقه، أو حريته شيئاً". فهو على النقيض من ذلك، يعي تصرفاته ولا يتناقض مع نفسه، أو مع الشرعية، فهو يتيح المحاكمة العادلة للمحكوم عليه بالإعدام، كما أنه يختار بعد تفكير الخضوع للقانون ملتمساً حريته من خلاله بدلاً من اللجوء إلى الإرهاب، وعندما يحاول القاضي ليّ بنود القانون يقف السلطان مع منطق الحق رافضاً أن تتحول سطور القانون إلى ألاعيب وحيل، ولا يتقهقر عن مبدأه حتى لو فقد عرشه.

2- ـ القاضي:

تثير شخصية القاضي كثيراً من التساؤلات، حيث نجده في البدء متمسكاً بحرفية القانون رافضاً الإغراءات، والتهديدات، ولو أدى الأمر إلى هلاكه "لا أستطيع أن أكذب على نفسي، ولا أستطيع التخلص من القانون وأنا الذي أمثله، ولا أستطيع الحنث بيمين عاهدت فيها نفسي أن أكون الخادم الأمين للشرع، والقانون"، هذا القاضي يتحول

عند المحك الحقيقي إلى متحايل على القانون مستخف به وتلك هي مأساة الأمم عندما تجد حقوقها قد ديست باسم الشرعية والقانون.

3- - الوزيــر:

نفس الشخصية المتعارف عليها في الوجدان الشعبي، نموذج هدفه حماية مصالحه الخاصة المرتبطة برأس النظام، وفي ذلك لا يتورع عن استخدام أساليب التعسف والدهاء، فهو الذي يأمر بإعدام النخاس دون محاكمة ليقضي على الإشاعات في مهدها، وهو الذي يشير على السلطان باستخدام السيف ضد الغانية ويحاول اللجوء إلى تبرير شبه قانوني باستفتاء الناس على ذلك.

وعندما يراود الوزير خاطر أن الغانية ربما تخلف وعدها بالعتق في موعده، يتفتق ذهنه عن تهمه تبيح له إعدام المرأة دون معارضة من الشعب بأن يصمها بالخيانة، والجاسوسية، ليبدأ بتعزيز وجوده المستمد من البطش تارة، والافتراء تارات.

4- - الغانيــة:

تبدو إنسانية الغانية جلية منذ بداية المسرحية رغم كل ما تتعرض له من تقولات، حيث نجدها تتعاطف مع مصير المحكوم عليه المرتبط بآذان الفجر، فتعمل على تأخير المؤذن حتى لا يعدم إنسان بريئ. ولا تنسى في الوقت نفسه أن تبرئ المؤذن من تلك الفعلة أمام غضبة الوزير.

ويبدو منطق الغانية الصائب سداً منيعاً أمام حيل القاضي وجبروت الوزير: "هذه المرأة كفيلة أن تجد من العبارات الرنانة في القانون، والمنطق ما تبرر به فعلها"

قدرة الغانية على التحمل يصل بها إلى حد القبول بإدانة الناس لها حيث لم يكن مظهرها الخارجي يشي بعالمها الداخلي المفعم بالنقاء والنبل، ذلك النبل الذي اكتشف السلطان ماهيته في تلك الساعات القليلة التي أمضاها في بيتها.

من هنا تبدو لنا وجاهة رأي (فؤاد دوارة) الذي يرى طأن الغانية رمز لسواد الشعب الذي يملك أغلبية الأصوات، فهو وحده الذي يملك حق إعطاء السلطان صفته الشرعية، وهذه الغالبية تكون عادة من الطبقات الدنيا في المجتمع التي نسيء عادة الظن به.

وهذا يتفق مع الفكرة الرئيسية التي أراد الحكيم طرحها "فشعبية الحاكم لن تتأكد إلا بتعميق التجربة الديمقراطية، وشرعيته لن تدعم إلا بمقدار تمسكه بهذا المبدأ، فالطريق الديمقراطي السليم هو الذي يكشف لنا عن إنسانية الإنسان، كما اكتشف السلطان حقيقة الغانية الفاضلة"، لأن مصير الإنسان لا يمكن أن تحدده سيوف التعسف بقدر ما تحدده العلاقات الإنسانية القائمة على الفهم الحقيقي لشرعية القانون الذي يهدف أول ما يهدف إلى خير ومصلحة الحكام والمحكومين على حد سواء.

ولعل (الحكيم) من خلال النهاية التي جاءت عليها مسرحيته يقودنا إلى تلك القناة، فاكتساب السلطان لحقوقه، ووصوله إلى بر الأمان عبر تطبيق روح القانون دليل على أن أي انحراف عن تلك الطريق لا يحمل في طياته غير المآسي والويلات.

معلومة: الغانية في اللغة، هي المرأة التي "استغنت" عن مساحيق التجميل والتبرج لكونها جميلة ولا تحتاج إلى التجمل

أسلوب الكتابة في المسرحية

– تمتاز المسرحية بعنصر الحركة والمفاجأة والتشويق

– الأحداث تتلاءم مع جوهر الصراع في المسرحية
– الفكرة تناقش علاقة الإنسان بالنظام وعلاقة النظام بالقانون
– الصراع بين سلطة القانون وسلطة القوة (السيف والقانون)
– مزج التراجيديا بالكوميديا
– نموذج للمسرح الذهني الذي يركّز على الفكرة، حيث تأتي الشخصيات لتخدم هذه الفكرة.